جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الثامن: "رق الحبيب" رواية "الواقعة"

نشرة "الإنسان 2018/06/16
السنةالحادية عشرة – العدد: 3941

بروفيسور يحيـــــى الرخــــــاوي – الطب النفسي، مصر
yehiatrakhawy@hotmail.com

مقدمة

نواصل نشر فصول رواية "الواقعة" تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) كما أشرنا الأسبوع الماضى.

وهذا هو الفصل الثامن

*****

(رواية "الواقعة") (1)

الجزء الأول: من ثلاثية "المشى على الصراط"

الفصل الثامن:

"رق الحبيب"

أنا أعيش هذه الأيام كالإناء المشروخ من الداخل، أخاف أن يمتد الشرخ إلى الخارج فى أى لحظة فيتهشم الإناء تماما، جرعة من سائل ساخن، أو تلميحة جارحة، أو احتكاك بالأتوبيس أى من ذلك كفيل أن يجعلنى أنتكس فورا وأن أفضح على الملأ.

قبل أن أبدأ عملى بشكل جدى، ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة، أرسل لى المدير يستدعينى على غير توقع، ملفاتى قد خلت من التأشيرات الحمراء منذ زمن، وأحوالى الظاهرة لا يبدو عليها تغيير إدارى، ليس بينى وبينه علاقة خاصة، فماذا هناك، .؟ ذهبت إليه وأنا أدعو بالستر، لست فى حالة تسمح لى بالتساؤلات التى توردنى حقول الألغام المليئة بحسابات ليس لها آخر، أنا أعيش هذه الأيام كالإناء المشروخ من الداخل، أخاف أن يمتد الشرخ إلى الخارج فى أى لحظة فيتهشم الإناء تماما، جرعة من سائل ساخن، أو تلميحة جارحة، أو احتكاك بالأتوبيس أى من ذلك كفيل أن يجعلنى أنتكس فورا وأن أفضح على الملأ.

ماذا يريد منى المدير شخصيا؟ ربك يستر .

دخلت عليه مترددا ولم أحاول أن أسبق الأحداث، وهو لم يمهلنى، فقد قام من على مكتبة واستقبلنى فى منتصف الحجرة حتى كاد يغشى على من هول المفاجأة، كان وجهه صارما كالعادة، إلا أنه بدا لى إنسانا أطيب مائة مرة مما كنت أحسب، لا بد أن وراء هذا الوجه الصارم قلب مثل قلوب الناس الأصلية قبل أن يصبحوا مديرين، اكتملت لما دعانى للجلوس على الأريكة وجلس بجوارى – أخذ قلبى يخفق بسرعة هائلة من المفاجأة والحذر معا دارت بخاطرى شتى الظنون، ماذا يريد منى فى هذا اليوم المختلف؟ أنا بى ما يكفينى، ماذا صنعت على وجه التحديد؟ وماذا لم أصنع على وجه التحديد، .....؟

– أستاذ عبد السلام أنت رجل مؤمن.

يا نهار اسود، من أين بلغه الحوار الدائر فى رأسى، هل أفشى أحدهم السر؟! هو الأستاذ نصحى ليس غيره، هذه نتيجة من يسلم نفسه للهواة لعلاجه أو هدايته، أو لعله أسعد افندى يرد الإهانة التى

لحقته بالاستخفاف بدعوته للدير ألم يقل لى لابد من حرب الملحدين، لابد أن سيادة المدير قد علم ما بى، وها أنذا أمثل أمام محكمة التفيش، ماله سيادة المدير ومالى إن كنت مؤمنا أو كافرا؟ ملفاتى سليمة وأوراق تعيينى مثبت فيها أنى مسلم، حضورى منتظم فى الأيام الأخيرة، هذا كل ما عندى له، أما حكاية "الإيمان" هذه فهى من شئونى الخاصة، وحتى هذه الحكاية لم أقصر فيها فأنا دائم البحث "عنه" فى كل مكان، حتى الست صفية التى قابلتها عند غريب افندى تشهد بذلك، سوف أتمادى معه على قدر السؤال حتى تمر هذه المسألة بسلام.

– الحمد لله، .. يا سعادة البيه.

– هذا ما أعلمه فيك، لذلك قررت أن أواجهك بنفسى.

يواجهنى بنفسه؟ لا بد أنه أصدر قرارا خطيرا يحتاج أن يتنازل إلى هذه الدرجة وأن يطمئن على إيمانى قبل أن يلقيه فى وجهى، شىء يتعلق بمستقبلى بلا شك، تذكرت تهديد الأستاذ نصحى الذى تحايلت عليه، يا ليتنى أطعت كلام الأستاذ نصحى؟ وبعت حلى زوجتى لأعــَالج بانتظام عند صاحبه حتى لو انتهيت إلى السكنى فى إحدى المدافن العصرية فى وادى الملوك مثله، ربما كنت رحمت نفسى من كل هذا الذى يجرى، واجهنى بنفسك وخلصنى يا سعادة البك، هاتها والرزق على الله، أليس هذا دليل الإيمان،

– أمرك يا سعادة البيه.

وضع يده على كتفى حتى كدت أرتجف، يبدو أن المسألة لم تصل إلى الفصل، ربما بلغه مرضى فأراد هو الآخر أن يتطوع بعلاجى، أو ربما تطورت حالتى حتى يلزمنى معالج بدرجة مدير عام، من أدرانى ماذا قال له الأستاذ نصحى أو أسعد افندى بعد أن كفرت بإيمانهما معا؟ قال فى هدوء:

– لن أطيل عليك، البقية فى حياتك، والدتك تعيش أنت، جاءنى تليفون الآن لأبلغك، ثم انقطعت المكالمة، أنا آسف، .. شد حيلك، البقاء لله.

قالها وقام واقفا فى شهامة وهو يشد على يدى فى أسى صادق حتى حسبته سيبكى، حاولت أن أبحث فى داخلى عن التفاعل التلقائى فى مثل هذه الأحوال فلم يسعفنى شئ، كأن مشاعرى كلها قد اختفت بشكل جماعى، حاولت حتى أن أتذكر ما ينبغى أن يقال لأرد به فى مثل هذه الظروف حتى أظهر أمام الناس طبيعيا فلم أتذكر شيئا، طافت بعقلى مواقف مختلفة لم أستطع أن أنتقى منها المناسب، صراخ؟ بكاء؟ ؟ إغماء؟ لطم؟ لا أقدر على شىء من ذلك، ماذا يقولون؟ لابد أن يبدو على أى تغيير أو تأثر، يقال إن شدة الحزن تجفف الدموع لهول الخطب، هذا هو الحل: أتمادى فى البلادة وليكن ذهولى القائم هو التفاعل المفضل، وهو السبيل إلى الستر.

انتبهت ليد المدير فى يدى، أكملت السلام، نظرت إلى الأرض وتمتمت ببضعة كلمات وهممت بالانصراف، أمسك بى وعاد فوضع يده على كتفى ولم أعد أسمع ما يقول، قدرت أنها مجموعة ألفاظ للتعبير عن المواساة أو للتشجيع، لكنها انتهت وهو يضع يده فى جيبه ويخرج حافظته ويعرض على نقودا تتعلق بالمصاريف و"الخــَرْجــَة" وأشياء من هذا القبيل، اعتذرت بشدة وخرجت شاكرا من قلبى فعلا، لم أكن أتصور أن هذا المنصب يمكن أن يشغله من يحمل كل هذه الرقة.

مضيت إلى مكتبى أجمع أوراقى ومازال عقلى فارغا تماما، جاءنى الأستاذ نصحى يسألنى عن نتيجة المقابلة لمّا رآنى صامتا أجمع أوراقى وأضعها فى الدرج، نظرت إلى وجهه بنفور، وفجأة أحسست أن عــَقــْلــَىّ قد استيقظا معا يريد كل منهما أن يجيب عليه مثل أيام زمان، رعبت من هول المفاجأة، هل هذا وقته؟ هل أمضى فى ذهول حزين منذ عدت من زيارتها حتى الآن، ثم إذا جاء وقت الحزن بحق انقسمت هكذا من جديد؟

لعلى أحتاج للحزن الآن أكثر من أى وقت مضى فهو أقرب إلى مقتضى الحال

انطلق عقلى الساخر يحاول أن يرسم الناس وينطلق فى سبابه؟ حياتى بالمقلوب، يظهر الحزن حين

أطمع فى البهجة، ويختفى حين ينبغى أن أحزن، ماذا أنا فاعل الآن؟ الحصانان يتسابقان للرد على نصحى افندى، من ذا منهما سيعامل الناس فى البلدة؟ وكيف سَتَمُرّ ليلة المأتم وأنا هكذا؟ وماذا أفعل حين أجد نفسى قد انفصلت عن كل شئ، وركبت كوكبى الخاص، وأمسكت بمنظارى أرقب حركة النمل الآدمى على الكرة الأرضية؟

انتبهت إلى صوت نصحى يكرر:

– خير يا أستاذ عبد السلام؟

بدأت أرد على موجتين مثل زمان

– والدتى تعيش أنت.

(قال عقل بالى:"العقبى لك")

قال فى تأثر سطحى على قدر ما يعرف، إذ يبدو أنه نسى التأثر الحقيقى من كثرة ملازمته لمدفنه العصرى، وممارسته هواية التحليل.

البقية فى حياتك.

– حياتك الباقية.

(قال عقل بالى:" ليس معى فكة، خل الباقى لك")

– أنت خير من يقابل "قضاء الله" بشجاعة.

– شكرا، الحمد لله على قضائه، لله ما أخذ، وله ما أبقى.

(قال عقل بالى: "واقعتك مثل الطين، إياك أن تظن أن هذا من ضمن العلاج").

أقبل علىّ بقية الموظفين فى حماس وأسى يأخذون بخاطرى وأنا أتفرس فى وجوههم من بعيد وأرد عليهم الردود المعهودة، عرض أكثر من واحد خدماته المالية، وأخذ أحدهم تفاصيل عائلتى وأقربائى حتى يقومون بكتابة النعى، كنت أرد بطريقة جوفاء غير أنهم أخذوا كل المعلومات اللازمة دون تلكؤ، عارضت بشدة أن يصحبنى أحدهم مبديا مختلف الأعذار، مخفيا خوفى من الفضيحة، شكرتهم ووعدتهم بإبلاغهم ما نقص من تفاصيل فيما بعد.

" ولما قرب ميعاد حبيبى ورحت اقابله".

" هنيت فؤادى على نصيبى بالقـرب منه".

أخذت تاكسى إلى المنزل وأنا فى اشد حالات الرعب من عودة اللعبة الداخلية فى وقت أنا أحوج ما أكون فيه إلى أن أنضم إلى بعضى، أنا لا أعرف متى تبدأ هذه اللعبة ومتى تنتهى، أنشق بلا تمهيد، وألتحم بلا مناسبة، وحين أنشق تتراقص الدنيا أمامى بلا معنى، وحين ألتحم يركبنى الهم بلا حدود، باستثناء تلك اللحظات الرائعة التى أحَّس بى فيها عم محفوظ، فأنا ضائع بين الحالين، لعلى أحتاج للحزن الآن أكثر من أى وقت مضى فهو أقرب إلى مقتضى الحال، الأمر ليس بيدى، ماذا أفعل أنا الآن بهذه المسخرة؟ أريد أن ألحم داخلى ولو بمكواة الأكسجين الآن على الأقل، ويا حبذا إلى الأبد.

حاولت أن أتذكر عطفها وحنانها وأفضالها، استرجعت مشيتها وجلستها ويوم أن ذهبت إليها مؤخرا، وسعدتْ بى بعد عتاب صامت حنون، حاولت أن أجعل ذلك مجلبة لذرة من الأسى والحزن، ولكن المشاعر كلها كانت تغوص منى داخل جب مظلم بلا قاع.

وصلت إلى المنزل فوجدت زوجتى قد ارتدت رداء أسود وأعدت العدة للسفر بلا إبطاء، لابد أنهم أبلغوها فى نفس الوقت، داخلتنى درجة من الطمأنينة حين تذكرت أنها ستصحبنى إلى هناك، ربما بذلك لا أضطر لتصرف شاذ يفضحنى تحت ضغط الوحدة والإرهاق، استأجرت عربة خاصة ولم يبق إلا أن أركب، ..

قلت لها:

– البقية فى حياتك.

– حسك فى الدنيا.

حلوة هذه اللعبة، كل حركة محسوبة ولها رد محسوب، مثل افتتاحيات الشطرنج، إلا أن الدور ينتهى فى الشطرنج بموت الملك، لكن هذا الدور يبدأ بموت الملكة، ما كل هذه الافتتاحيات المبتورة بلا أدنى حركة واحدة.

قال السائق:

– هذه حال الدنيا.

–.... الدوام لله.

... مثل افتتاحية نابليون، لو عرف السائق الخدعة فسوف أُبَـيِّـتُ الطابية فى النقلة القادمة، حافظ أنا كل اللعب، دون تعلم، يولد الطفل وهو حافظ لعبة الموت، قبل أن يتعلم الرضاعة يلقنوه آداب النهاية، وهو سرعان ما يكف عن الضحك، فلا تبقى إلا السخرية والقتل!!

قلت له (لعقل بالي): بالذمة هل هذا وقت الفلسفة واختراع النظريات الجديدة؟

أواجه غربتى ووحدتى وشذوذى فى أدق مناسبة تحتاج إلى المجاملة والحديث اللبق، نظرت إلى وجهى فى مرآة السيارة خشية أن يظهر عليه ما بداخله، حاولت أن أنـْـهـَـى عقل بالى حين تصورت أن أحدا فى السيارة يمكن أن يسمع همسه، ولكنه انطلق يغنى متحديا:

" رق الحبيب وواعدنى يوم".

" وكانْ له مدة غايب عني".

كدت أقفز من السيارة خوفا واحتجاجا معا، هل وصلت الأمور إلى حد الغناء؟ ألا تكفى المسخرة الحشاشة التى لا تتوقف؟ جعلت أحايله بشتى الطرق وأنا خجلان منه حتى كدت أذوب من فرط شعورى بالذنب، ولكنى خفت أن يتمادى فى العناد حتى يفضحنى عمدا فسمحت له بمواصلة الغناء صامتا، نظرت إلى وجه زوجتى فوجدته كما هو، حمدت الله.

أصبح كل همى أن تمر هذه المناسبة بسلام.

انقضت أيام الحزن حتى الأربعين، زوجتى ترعانى بطريقة جديدة لعلها قصدت أن تعوضنى بها فقد أمى، لم أتقبل الموقف ببساطة بل زدت حذرا وتوجسا، كان كل همى ألا تلاحظ علىّ التبلد الشامل

حين وصلنا البلدة وجدت كل شىء معدا، ما أروع التعاون بين هؤلاء الناس، أخبرونى بأنها كانت قد أعدت كل شىء قبل وفاتها: الكفن، مصاريف الجنازة، بقشيش صبيات المغسلة، تسلمت أماناتها من ابن أختها عبد ربه، اتجهت إلىّ النظرات وكأنه ينبغى أن أعمل شيئا محددا، واقف أنا وسطهم كاللوح دون حراك، همس لى عبد ربه إن كنت أريد أن ألقى عليها النظرة الأخيرة حيث الجميع ينتظرون قدومى لإتمام الإجراءات، ملكنى الرعب وأنا أتمنى ألا يكون هذا فرض حتمى، فهمت من وجوههم أن الكل قد انتظر هذه اللحظة على أساس أنه لا بد أن تكون هذه هى رغبتى، خاصة وأنى الابن الوحيد الموجود، أختى مع زوجها فى الصعيد ولن تحضر قبل المساء وأخى فى ليبيا وقد لا يحضر أصلا، لا مفر من أن أفعل ما توقعوه – على الأقل بالنيابة عن إخوتى – دخلت وأنا أكاد أرتعد حتى تعثـــرت، كشفوا وجهها فوجدته لم يتغير عن آخر زيارة باستثناء زيادة طفيفة فى الشحوب، خيل إلى فجأة أنها تبتسم لى، انفجرت فى البكاء بغير حزن، بكاء كصياح طفل قرصه الجوع لما تأخرت الرضعة، وما إن أحسست أن الأيدى تمسك بى حتى اندفعت أقبـــلها فى وجهها ويديها والدموع تغمر وجهى وتبللها، لم أكن متأكدا من الذى يبكى، لم يكن ذلك الطفل، ولم أكن أنا، كان يغمرنى فى نفس الوقت شعور بالاحتجاج بأنها ذهبت قبل أن تجئ، لم أفهم.

تكاثرت الأيدى علىّ حتى أبعدونى، وبدأت أميز الصيحات حولى " وحـِّـد الله" "الله أكبر" "أذكر ربك واستغفر" وتعالى "صوات" النسوة فى صحن الدار.

* * *

استرخيت على الكرسى الذى وضعونى فيه، مسح بعضهم دموعى، هذا شىء لم يحدث لى فى حياتها، لا أذكر أنى قبلتها هكذا أبدا، فجأة عادت نفس الأغنية تتردد فى عقلى.

" ولما قرب ميعاد حبيبى ورحت اقابله".

" هنيت فؤادى على نصيبى بالقــرب منه".

كدت أقوم كالملدوغ خشية أن يسمعنى أحد، منعونى برفق حازم، حاولت أن أذهب ناحيتها مرة ثانية، فتجمع علىّ أربعة رجال أشداء ينظرون إلىّ بشفقة وتقدير، تطلعت فى وجوههم فرجحت أن ما فعلته قد قوبل بالاستحسان رغم المنع الحازم، يبدو أن ذلك كله يعتبر من مظاهر الحزن العميق، صافحت سمعى بعض التعليقات التى أكدت لى ذلك، "ابن حلال" "كان قلبها حاسس"، " نادته فى المنام"، "ماتت وهى عنه راضية".

كانت هذه الكلمات تصل إلىّ فتطمئننى أن تصرفى مازال حتى الآن فى عداد المعقول، بل يبدو أنى تفوقت عما ينتظرون، أخذت أجتر كلمتهم الأخيرة أنها "ماتت وهى عنى راضية"، رحت أسترجع البسمة التى لمحتها على وجهها، فيغمرنى سكونٌ غريب.

* * *

مضت الدفنة وليلة المأتم والأيدى تتناولنى من المقابر إلى الدوار، ومن هذا الكرسى إلى ذاك، وما علىّ إلا أن أقوم واقفا إثر كل فترة تلاوة، عن يمينى عبد ربه وعن يسارى ابن عمها سيد أحمد الباز، نسلم على الذاهبين متمتمين بتلك الكلمات التى تبينت أنى أحفظها عن ظهر قلب، حين انتهى كل شىء وذهبت إلى الدار وجدت خالتى أم عطية فى انتظارى، انتحت بى جانبا وناولتنى قطعة قماش ثقيلة الوزن وقالت فى همس بصوتها الذى مازال مبحوحا من كثرة النواح:

– أوصتنى المرحومة أن أعطيك هذه الأمانة فى السر.

أخذتها بتردد ولم أنبس.

أكملت أم عطية حديثها وهى تناولنى مثلث صغير مغطى بالقماش أيضا.

– وهذا الحجاب أيضا، كانت قد عملته لك بعد الزيارة الأخيرة، وقد أخذت "أَتــرَكَ" دون أن تدرى، وهى توصيك أن تحرص أن يظل الحجاب لصيقا لملابسك الداخلية –ولا مؤاخذة– حتى يفك الله ضيقك.

لا أذكر أنى حدثتها عن ضيقى ولا عن أى شئ، ماتت وهى تعرف ما بي!! ماتت وهى راضية عنى، وهى تدعو لى.

حمدت الله واستغرقت فى نوم هادئ والحجاب تحت جنبى حتى مطلع الشمس.

* * *

انقضت أيام الحزن حتى الأربعين، زوجتى ترعانى بطريقة جديدة لعلها قصدت أن تعوضنى بها فقد أمى، لم أتقبل الموقف ببساطة بل زدت حذرا وتوجسا، كان كل همى ألا تلاحظ علىّ التبلد الشامل، فاضطررت إلى تقبل هذه الرعاية المفرطة بحذر دون رفض علنى، لم أشعر أنها تستطيع أن تعوضنى عن حنان أمى فأنا لا أعرفه أصلا، وهى لا تملكه أيضا.

ظللت اتساءل: ماذا تريد هذه المرأة هذه الأيام؟

لم تقف الأمور عند هذا الحد، ما كاد الأربعين يمضى حتى أخذ اقترابها منى يأخذ شكلا حسيا أربكنى فى أول الأمر، ثم أرعبنى لما فكرت فى معاودة جهاد السرير، كنت قد اعتدت أن أنام معها بلغة صامتة، كنا نوفق أن نتفاهم بها فى أغلب الأحيان، وحتى الفترة العصيبة التى مرت بى فى تلك الأيام التى كدت أفضح فيها أثناء الليل كان ذكائى يحول بينى وبين إعلان الفشل، كنت أتجنب أى اختبار حقيقى فألتمس العذر حتى أسهى نفسى وأعملها من وراء وجدانى وجه الصباح، اختلف الأمر الآن: أحس أنى مقبل على أيام عصيبة لا أعرف إلى أين سوف تذهب بى.

– مالك يا عبد السلام؟

لست أدرى لماذا أصرت هذه الليلة أن يظل نور"الأباجورة" مضاءا كل الوقت وقد اعتدنا إطفاءه، كنت كلما نظرت إلى وجهها وهو يشرق بالرغبة ويزداد جمالا خفق قلبى رهبة وخوفا، أشعر أن بها شيئا جديدا صريحا واعيا

وقع المحظور وانفصل جزء من جسمى عن إرادتى، أخذ العرق يتصبب منى بشكل ظاهر، أطفأت النور أملا فى إحياء الموتى بتعاويذ الظلام، ولكن دون جدوى، بدأت أرتجف بعنف

قالتها هذه المرة بطريقة أخرى، خيل إلى أنها أقرب إلى الاتهام، فأحسست أن مصيرى قد اقترب تحديده، ولا فائدة من التأجيل.

– خيرا إن شاء الله.

– هل مازالت المرحومة مؤثرة فيك إلى هذا الحد؟

– الأعمار بيد الله، .. والحى أبقى من الميت.

– لكل شىء نهاية، كفانا حزنا حتى نرحمها فى قبرها.

أيقنت أن علىّ أن أرد عليها هذه الليلة بالذات ردا عمليا، كان العشاء معدا بطريقة صريحة، وقد خلعتْ ملابس الحداد بعد الأربعين وبدت لى جميلة فعلا كما قالت الست صفية ذلك اليوم، أحسست برغبة فيها ففرحت بذلك وتوقعت أن تنمحى شكوشى وشكوكها بعد دقائق.

لست أدرى لماذا أصرت هذه الليلة أن يظل نور"الأباجورة" مضاءا كل الوقت وقد اعتدنا إطفاءه، كنت كلما نظرت إلى وجهها وهو يشرق بالرغبة ويزداد جمالا خفق قلبى رهبة وخوفا، أشعر أن بها شيئا جديدا صريحا واعيا، لمست وجهها بيدى لأتأكد من أن الأمر ممكن فإذا بى كأنى أتعرف عليها لأول مرة، لم أصدق أن هذه المرأة بلحمها ودمها ورغبتها هى زوجتى حقيقة وواقعا، تعجـَّبتُ أننى أنا شخصيا أنجبت منها أولادا، اقتربت منها بشهوة لا تخفى، حاولت أن أقبلها فى شفتيها ولكن خيل إلى أن ملامحها تتغير، تراجعت خائفا من مجهول، لا مفر من التقدم وليكن ما يكون، فجأة رأيت وجه الحاجة فتحية والدة أمانى يحل محل وجهها، انتفضت كالملدوغ وأحسست ببلـــل لزج يملأ وجهى حتى أخذت أتحسسه لأتأكد أنه خال من البصاق.

وقع المحظور وانفصل جزء من جسمى عن إرادتى، أخذ العرق يتصبب منى بشكل ظاهر، أطفأت النور أملا فى إحياء الموتى بتعاويذ الظلام، ولكن دون جدوى، بدأت أرتجف بعنف، أدركت هى أن الأمر أصبح خارج قدرتى، أخذت تهدئ من روعى وتؤكد لى، وهى غير متأكدة، أنها حالة عارضة، وأن هذا الأمر هو آخر ما يهمها لأنها لا ترجوا إلا صحتى وسعادتى.

* * *

عادت إلى ذاكرتى كل تلك الفترة التى كانت قد اختفت فى مكان ما بين طياتها الأبعد، حين انفصل عقلى إلى عقلين استطعت أن أتغلب على الموقف بالصبر والحوار والتحايل والسخرية حتى مضيت فى سردابى السحرى دون أن يلحظنى أحد، اختلفت المسألة الآن، انفصل جسمى عنى علنا وأمام شهود ممن "يهمهم الأمر"، رغم ذلك الفشل المعلن الذى لا جدال فيه، استيقظت فىّ كل المشاعر الشبقية العنيفة التى كانت قد اختفت مع ما اختفى من مخزون ذاكرتى، تأتينى هذه المشاعر الشبقية فى نوبات متقطعة لا أعرف بدايتها أو نهايتها، حتى أننى فكرت أن أزور الحاجة فتحية وابنتها "أنا وعقل بالى" معا، أنا بنية الاعتذار، وهو ونصيبه حسب مقتضى الحال.

لم تنفعنى هذه المشاعر التى كانت تغمرنى أحيانا أثناء النهار، ثم ما أن يحل الليل حتى أكتشف أن سلاح رجولتى خال من الذخيرة، كيف ازدادت زوجتى جمالا وحيوية حتى اكتملت زينتها ونبضت بحضورها الجديد، الذى بدا وكأنه يزيد من عجزى حتى اليأس، حاولت أن أتجنب المواجهة ولو إلى حين بأن أنام وحدى على الكنبة العربى لولا أنى أحسست أن هذه الخطوة هى بمثابة "إعلان شرعى" لوفاة جزء منى، قدّرت أن هذا سابق لأوانه.

خيل إلى أن هذا الجزء من جسدى يتحدانى قصدا، أنه استقل عنى مثل عقلى الآخر، أنه يريد أن يعمل لحسابه، أو يشهـــر بى، لو أنه مات طول الوقت لا سترحت وبحثت عن تفسير طبى، إلا أنه كان يزعجنى فى الأتوبيسات والأماكن العامة بيقظة لا مبرر لها، ثم يموت بلا حراك عند الحاجة إلى خدماته، المصيبة الأكبر أن الرغبة لم تكن ترحمنى ليلا أو نهارا، الأمر الوحيد الذى تحسن هو أنى لم

أدركت هى أن الأمر أصبح خارج قدرتى، أخذت تهدئ من روعى وتؤكد لى، وهى غير متأكدة، أنها حالة عارضة، وأن هذا الأمر هو آخر ما يهمها لأنها لا ترجوا إلا صحتى وسعادتى

رغم ذلك الفشل المعلن الذى لا جدال فيه، استيقظت فىّ كل المشاعر الشبقية العنيفة التى كانت قد اختفت مع ما اختفى من مخزون ذاكرتى، تأتينى هذه المشاعر الشبقية فى نوبات متقطعة لا أعرف بدايتها أو نهايتها

أعد أحس بآثار بصقة الحاجة فتحية كما كان الحال فى البداية.

من يا ترى يستطيع عونى هذه المرة؟

خجلت حين خطر ببالى عم محفوظ، فعلى قدر حاجتى له كان خوفى منه، خيل إلى أنه لما حضر للعزاء التقط حرجى، وعاهدت أعيننا بعضها بعضا ألا نلتقى حتى يحدث شيء جديد، أحسست برقته وصدق حسه حين بدأ يرسل صبيه بدلا منه، ولكنه لا ينسى أن يرسل لى السلام، فأرد بالشكر والدعاء، على الرغم من ذلك كان هو الذى خطر على بالى أول ما فكرت فى العون فى هذه المسألة، وأرجع أقول ماله هو بهذا الشأن بالذات، ثم كيف أقابله بعد ذلك لو عرف سرى الخاص.

نصحى افندي؟ أبدا، حافظ أنا عن ظهر قلب ما يمكن أن يقوله فى مثل هذه الأحوال، سوف يـُسـَـمـِّـح لى أساطيره الإغريقية، وما أسهل أن يربط بين قبلتى لجثة أمى و زيارتى لقبر أبى وهات يا تحليل وأنا أتفرج، تقمصته وحاولت أن أحلها بهذا التفسير وأن أربط بين الأحداث ربطا مسلسلا تعلمت بعضه من كثرة ما ردده الأستاذ نصحى حتى خيل إلى ذات ليلة أننى وصلت إلى تفسير لا بد أن يختبر، فى المساء أخرج لى صاحب الشأن لسانه بلا رحمة، حين كنت أستحضر صورة أبى لأعطيه دور المنافس المغوار كنت أجده جالسا يتمتم بورده ويهز جسمه تلك الهزات الرتيبة التى لا تتوقف إلا لينقل عداد مسبحته، وكان يبدو لى على هذه الصورة زاهدا فى المـلك والملكة معا، أهكذا يا عم صبحى تقلقل الرجل فى تربته؟

فكرت أن أذهب لأخصائى الأعصاب، إلا أن أعصاب هذا الجزء الميت ليس فى متانتها شك، ولكن فى غير أوقات العمل الرسمية.

ذات مرة، راودنى الشك فى طبيعة الحجاب الذى تركته أمى مع خالتى أم عطية، كدت أتهم الحجاب بالقتل، لكنى سرعان ما طردت الفكرة لما لم أجد لها سببا وجيها يبرر سوء النية برغم علاقة المرحومة الباردة بزوجتى، والعكس صحيح، ومع ذلك فقد خلعته بضع ليال وتركته فى المكتب، ولكن بلا نتيجة.

تزيد الأزمة حدة فأتذكر لفة أمى الأخرى التى اخفيتها فى مكان سرى بالبيت بما تحوى من حلى ونقود، أتمنى لو كان هناك علاجا سريا يأخذ كل مالى مقابل أن أستعيد رجولتى، يخطر ببالى تحذير هام ينبهنى بأننى حتى لو استعدت رجولتى، فكيف سأجمع بقية أجزائى إلى بعضها البعض، يذكرنى هذا بالأيام الأولى التى كنت أهيم فيها على وجهى رغم قيامى بالنشاط الرجولى على الوجه الأكمل، تمنيت أن ترجع تلك الانقسامات السرية فهى ستر وغطاء أفضل من هذا الاستقلال الذاتى الآبـِق، بدأت أتجنب لقاء زوجتى، وأحسب لغضبها ونظراتها ألف حساب، صرت أسئ تأويل أى اختلاف بينى وبينها، ضاقت بى الدائرة حتى قررت أن أستعين برأى الأستاذ غريب من طرف خفى، مازلت أذكر تلميح صفية ضيفته الخاصة من أن تبادل الآراء قد يعوق تبادل أشياء أخرى، عودنى غريب أنه سـَبـَّـاق إلى المصائب، فلا بد أن عنده خبرة "مجرب" على أقل تقدير،

– أهلا يا عبد السلام، أين أنت منذ وفاة المرحومة.

– لاأحب أن أشغل وقتك دون مبرر.

– وهل وجدت المبرر، أم وجدت الله؟

ذعرت من هذه السخرية حتى كدت أعدل عن الحديث معه.

– لقد تعبت من هذا البحث كما تذكرت كيف نبهـتنى أنه بحث بلا جدوى، ثم إنه فُرِضت علىّ مشاكل عاجلة تتعلق بأشياء ملموسة.

– الأشياء الملموسة هى الحقيقة المحسوسة، وكل ما عدا ذلك باطل وقبض الريح.

قلت له مغيرا الموضوع، فاكتشفت أننى أدخل إلى غريب من باب آخر:

ما أن يحل الليل حتى أكتشف أن سلاح رجولتى خال من الذخيرة، كيف ازدادت زوجتى جمالا وحيوية حتى اكتملت زينتها ونبضت بحضورها الجديد، الذى بدا وكأنه يزيد من عجزى حتى اليأس

خيل إلى أن هذا الجزء من جسدى يتحدانى قصدا، أنه استقل عنى مثل عقلى الآخر، أنه يريد أن يعمل لحسابه، أو يشهـر بى، لو أنه مات طول الوقت لا سترحت وبحثت عن تفسير طبى، إلا أنه كان يزعجنى فى الأتوبيسات والأماكن العامة بيقظة لا مبرر لها، ثم يموت بلا حراك عند الحاجة إلى خدماته

– جئت أسألك هل مازالت صفية تزورك أحيانا؟

امتقع وجهه وبدا كأنه لم يتوقع السؤال:

– ولماذا السؤال؟ .

– تخطر على بالى بين والحين، كان فى وجهها طيبة، وفى قلبها ألم لا ينسى، رغم وقاحتها المصطنعة،

اطمأن غريب فجأة، وكأن معركةً مـــَا انتهت قبل أن تبدأ:

– لم أرها منذ زمن، هى تحضر عادة دون طلب منى، ولا استئذان.

قلت وكأنى أفتح جبهة جديدة:

– هل تحضر لتــُزَوِّدُك بالثقافة كلما أحسست بالجهل الحاد؟

تجاوز غريب سخريتى بطيبة لم أتوقعها قائلا.

– المجتمع هو المسئول عن هذه الضحايا، ..

(عاد يستفزنى بحكمته الزائفة، اشتعلت النار دون قصد منى)

– وهل نجحت فى المساهمة فى رفع الظلم عن الضحايا.

حمل الأمر محمل الجد وأجاب بحماسه الفاتر:

– لا سبيل إلا بعد العثور على نظرية شاملة.

– فى المادة ما يكفى للتظير الشامل، أليس هذا رأيك؟

– لم يعد يكفينى ذلك بعد ما قرأت أكثر، مازال التطبيق هو مشكلة المشاكل.

– أخشى أن تمضى حياتك هنا بين الكتب، لا يدرى بك أحد، ولا تدرى بأحد.

– هذا أفضل من الخداع والتضليل.

– ألا تساهم أنت فى زيادة عدد الضحايا بهذا الانسحاب المزركش؟

بدأ تحفزه وهو يهم أن يرد لى الصفعة حتى خفت، ولكنه تراجع قائلا:

– لست فى حل أن أسألك وماذا فعلت أنت، لأنى أتحمل مسئولية انسحابى وحدى بغض النظر عن موقفك.

أدركت أننا ندور فى نفس الحلقة التى بدأناها منذ شهور، فلا هو ينوى أن يسمع، ولا أنا أفعل شيئا غير الاختباء وراء هذه المشاعر المتناقضة التى يسميها الأطباء من باب الرأفة بالبشر بأسماء مرضية رشيقة، رجعت إلى الموضوع الأصلى من طرف خفى:

– لم لا تتزوج يا غريب؟

امتقع وجهه أكثر وحسب أنى قبلت لعبة المعايرة، لم يجبنى إجابته الساخرة الأولى.. " هل عندك عروسة" ولكنه قذف إلىّ بالكرة:

– وهل أنت سعيد فى زواجك؟

تمالكت نفسى وعدلت نهائيا عن طلب مشورته،

– أجد من يرعانى على كل حال.

– أنا لا أحتاج لمن يرعانى، أنا كفيل بنفسى.

لم أجد مجالا لإطالة الحديث، فانصرفت شاكرا.

يا ترى هل مات عنده أيضا هذا الجزء العنيد؟

هذا أمرلا يمكن السكوت عليه.

* * *

أخذت أفكر طول الوقت فى مخرج من هذا المأزق حتى روادتنى فكرة الطلاق، بدأت لا أطيق رؤيتها، أكره جمالها وحيويتها، ساورتنى الظنون أحيانا رغم ثقتى بها: كيف تصبر أكثر على هذه الحال؟

أتمنى لو كان هناك علاجا سريا يأخذ كل مالى مقابل أن أستعيد رجولتى، يخطر ببالى تحذير هام ينبهنى بأننى حتى لو استعدت رجولتى، فكيف سأجمع بقية أجزائى إلى بعضها البعض

ذات يوم، وكنت فى الحمام، عاودتنى أحلام المراهقة حتى تعجبت ليقظة هذا الميت وهو يغرينى بمعاودة العادة القديمة، تعجبت للذة التى صحبتها رغم الخزْى والصغار اللذين أحسست بهما بعدها، اختفى هذا الشعور اللاحق بالتعود على هذا السبيل الجديد، خطر ببالى مرة أن أدخل الحمام قبل الاختبار الحقيقى أثناء الليل، استعدادا واكتسابا للثقة، ولكن الأمر كان ينتهى قبل أن أصل إلى باب حجرة النوم.

لا أستطيع أن أصف هذه الخبرة الغريبة التى عملتها دون مشورة أحد حين ذهبت إلى أخصائى التناسلية، بالرغم من تأكيده لى أن أعضائى سليمة إلا أنه نصحنى بجلسات كهربية تدفئ مقعدتى وتدليك عجيب الشكل، مازلت أخجل كلما استعدت ذكرى تلك الجلسات، كنت شديد النفور منها طول الوقت، خاصة أنها كانت بلا جدوى من البداية، لماذا واصلت الانتظام فيها، داخلنى شك خفى لم أحاول توضيحه لنفسي؟

سألته بعد أن انتهاء الجلسات إلى لا شئ:

– والآن ما العمل؟

– قلت لك من البداية أن أعضاءك سليمة، ولكنك رفضت استشارة طبيب نفسى.

قلت متخابثا حتى أجد مبررا للهرب.

– ولكن نفسيتى ليس بها خلل

– هذا العجز، .. هو جزء من نفسيتك.

تذكرت كلام نصحى أفندى عن الثعابين والإغريق، فسألته فى حذر:

– وهل الطبيب النفسى غير المحلل النفسى وغير طبيب الأعصاب؟

– هذا شىء وذاك شئ، وكل شيخ وله طريقة.

لم أقل له مادار بنفسى من تساؤل عن سبب مواصلة علاجى عنده بتلك الجلسات الغامضة ما دام يعرف أن أعضائى سليمة، شكرته وانصرفت وأنا فى عزمى أن أطفئ أى شعاع جديد، وليكن اليأس هو الواقع، تردد فى عقلى وأنا أنزل درج السلم من عنده نشيد الدوارة الذى كنا نردده فى الابتدائى:

" دار الصف، ...

لفوا لفوا، ...

لف القيد، ...

قيدى وافى؟ "

****

غدا "الفصل التاسع"

"الأرض السابعة "

ذات يوم، وكنت فى الحمام، عاودتنى أحلام المراهقة حتى تعجبت ليقظة هذا الميت وهو يغرينى بمعاودة العادة القديمة، تعجبت للذة التى صحبتها رغم الخِزْى والصغار اللذين أحسست بهما بعدها

إرتباط كامل النص:
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD160618.pdf

شبكة علوم النفس العربية
نحو لياقة نفسانية أفضل

مؤسسة العلوم النفسية العربية
معا ... نذهب أبعد

Arabpsynet